



قد يبدو غريباً مثل هذا السؤال، ولا يتناسب مع المنطق الطبيعي للأشياء، فالدول التي تذهب إلى احتلال غيرها ليست أي دول، بل لها سمات ظاهرة متشكّلة من فائضٍ في القوة، ومشروع استراتيجي طموح، واقتصاد متتطور يبحث عن موانئ للتصدير والاستيراد وأسواق لفائض الإنتاج.

ليس هذا الترف متوفراً للعراق الحالي الذي يساعدته تحالفٌ دوليٌّ عريض للتخلص من احتلال "داعش" الذي وصل به الأمر إلى حد السيطرة على ما يقارب نصف مساحة العراق، ولو لا عشراً لآلاف الغارات الجوية لدول التحالف التي أسهمت في إضعاف بنية القوة لدى "داعش"، وتدمير خطوط إمداده، لكن "داعش" قد غير خريطة العراق بشكل كبير ولعقود مقبلة.

لكن، وعلى الرغم من كل ما سبق، كان العراق يصدرَآلاف المقاتلين إلى سوريا الذين انتشروا على كامل مساحة البلد من حلب إلى درعا. وعلى الرغم من انهيار الاقتصاد العراقي وعجزه عن سد الحاجات الأساسية لسكان الموصل وتكريت والرمادي، إلا أنه كان يموّل الجهود الإيرانية في الحرب السورية، وقد أشارت تقارير عديدة محايده إلى هذا الأمر الذي لم يقف عند هذا الحد، بل لا تخفي جماعات الحشد الشعبي، وهي مليشيات يتجاوز عدد أفرادها مائة ألف، عزمها الدخول إلى سوريا في وقت قريب، لمحاربة القوى المعارضة لنظام الأسد، مع العلم أن آلآفَ المقاتلين العراقيين جرى توطينهم في مناطق قرية من دمشق، من خلال تهجير أهل تلك المناطق عنوة، كما داريا، أو منعهم من العودة إلى مناطقهم، كما جنوب دمشق وقرى القلمون الغربي.

كيف يمكننا قراءة مثل هذه الظاهرة المتناقضة، والتي تدعو إلى الغرابة، ذلك أن الوضع الطبيعي للعراق أن ينكمفَ على نفسه ويلملم شتاته، لأن بيادر إلى الهجوم بهذه الكثافة!

يستدعي فهم هذه الظاهرة قراءة السياق الذي يصدر عنه العراق، وهو تفكك الدولة نهائياً، ومعها جرى تفكيك الأطر والأهداف والاستراتيجيات الدولية، وتحول مركز القرار إلى خارج العراق، إيران تحديداً التي باتت تضع الأهداف، وتصنع السياسات للعراق، كما تصنع توجهاته السياسية وتصوغ موقفه وموقعه الإقليمي، في ظل وجود نخبٍ حاكمة في العراق، أقرب إلى صفة الموظفين لدى الإدارة الإيرانية، يقودهم مدراء، على شاكلة قاسم سليماني، لتنفيذ المشاريع الإيرانية.

كما أعادت إيران صياغة الهوية العراقية، واستبدلت الهوية العربية بالهوية الشيعية، مستغلةً مرحلة الاضطرابات التي عانى منها العراق بعد الاحتلال الأميركي، وتصدّع الهوية الوطنية، ودخولها في مرحلة فراغ، ما سمح لإيران بتشكيلها على مقاسات مشروعها في المنطقة، وخصوصاً في جزئية السيطرة على سوريا، حيث تنتشر مقامات آل البيت التي ستسدرج عشرات

آلاف الشباب العراقي، المتشكّلة عقیدته على الفداء والثأر، والعدو واضح ومعلوم "شعب سوريا الثائر على الأسد". تشكّل سوريا حيزاً مناسباً لتصريف الطاقة العراقية المتفجرة، بل ربما تبدو المنفذ الوحيد لاستيعاب الزخم العراقي، إذ على الرغم مما يشاع عن إجراءات أميركية لقطعـيع أوصال المشروع الإيراني، فإن عدم وجود استراتيجية فاعلة في هذا الخصوص، يجعل الأمر برمته يتحول إلى محفـز جديد للاندفاع العراقي صوب الحـيز السوري.

هذا الافتراض تؤهـله حقيقة أن أدوار الوكـلـاء على الأرض في الحرب السورية هي الفاعـلة، وذلك كونـهم يـشكلـون أوراقـاً يمكن المغـامـرة بها، فيما لا يـجرـؤـ المشـغلـون على الـظـهـورـ المـباـشـرـ، ربما لـحـسابـ ما قد يـربـتـهـ ظـهـورـهـ من استـهـقـاقـاتـ، أو ما يـسـتـدـعـيهـ من صـدـامـاتـ مـباـشـرـةـ، يـسـعـيـ الـلـاعـبـونـ الأـسـاسـيـوـنـ إـلـىـ تـجـنبـهاـ.

وـثـمةـ عـوـاـمـلـ دـاخـلـيـةـ "ـسـوـرـيـةـ"ـ تـشـجـعـ حـصـولـ الـاحـتـالـلـ العـراـقـيـ لـسـوـرـيـةـ، فـنـظـامـ الأـسـدـ الـذـيـ لـأـحـولـ وـلـاقـوـةـ لـهـ لـنـ يـكـونـ مـنـزـعـجاـ منـ الـاحـتـالـلـ العـراـقـيـ، ماـ دـامـ بـغـدـادـ تـمـوـلـ خـزـينـتـهـ الـفـارـغـةـ، وـمـاـ دـامـ الـعـنـصـرـ العـراـقـيـ يـؤـمـنـ لـهـ الـكـادـرـ الـذـيـ يـوـاجـهـ خـصـومـهـ، بـعـدـ أـنـ اـسـتـنـزـفـتـ الطـائـفـةـ الـعـلـوـيـةـ (ـقـتـلـ حـوـالـيـ 150ـ أـلـفـ مـنـ شـبـابـهـ).

كـمـاـ لـيـجـبـ إـنـكـارـ حـقـيقـةـ وـجـودـ بـيـئـةـ مـسانـدـةـ لـلـاحـتـالـلـ العـراـقـيـ لـسـوـرـيـةـ، بـعـدـ نـجـاحـ الدـعـاـيـةـ الـإـيـرـانـيـةـ بـأـنـ أـذـرـعـهـ "ـالـحـشـدـ الشـعـبـيـ"ـ وـحـزـبـ اللـهـ"ـ هـمـ حـمـةـ الـأـقـلـيـاتـ فـيـ سـوـرـيـةـ وـالـعـرـاقـ، وـخـصـوصـاـ الـمـسـيـحـيـيـنـ، وـقـدـ كـانـتـ لـافـتـةـ زـيـارـةـ وـفـدـ منـ حـرـكـةـ النـجـباءـ الـعـرـاقـيـةـ الـأـسـبـوعـ الـمـاـضـيـ، الـأـبـ لـوـقـاـ الـخـوـرـيـ مـعـاـونـ الـبـطـرـيرـكـ لـبـطـرـيرـكـ الـأـنـطاـكـيـ وـسـائـرـ الـمـشـرقـ لـلـرـوـمـ الـأـرـثـوذـكـسـ، الـذـيـ أـشـادـ بـدـورـ الـمـقاـوـمـةـ الـإـسـلـامـيـةـ وـحـرـكـةـ النـجـباءـ فـيـ سـوـرـيـةـ، وـخـصـوصـاـ فـيـ مـنـطـقـةـ مـحـرـدـةـ فـيـ الدـفـاعـ فـيـ الـمـسـيـحـ وـتـحـرـيرـ مـنـاطـقـهـمـ مـنـ يـدـ الـإـرـهـابـ. وـزـارـ الـوـفـدـ مـدـيـنـةـ السـوـيـدـاءـ، وـاستـقـبـلـهـمـ شـيـخـ الـعـقـلـ لـدـىـ الـطـائـفـةـ الـدـرـزـيـةـ، حـكـمـتـ الـهـجـرـيـ، الـذـيـ أـشـادـ بـدـورـ الـحـرـكـةـ فـيـ سـوـرـيـةـ فـيـ تـحـقـيقـ الـانتـصـارـ.

وـعـلـىـ الرـغـمـ مـنـ الـظـاهـرـ الـفـوـضـيـ لـلـقـوـةـ الـعـراـقـيـةـ، إـلـاـ أـنـهـ تـعـمـلـ وـفـقـ خـطـةـ، هـدـفـهـ حـصـارـ التـجـمـعـاتـ السـنـيـةـ، وـعـزـلـهـاـ فـيـ الـعـرـاقـ وـسـوـرـيـةـ، وـعـزـلـهـاـ عـنـ الـأـرـدـنـ وـالـعـمـقـ الـخـلـيـجيـ، وـلـاحـقاـ عـزـلـهـاـ عـنـ تـرـكـياـ، بـمـاـ يـضـمـنـ عـدـمـ وـجـودـ كـتـلـةـ مـقـابـلـةـ قـادـرـةـ عـلـىـ الدـفـاعـ عـنـ نـفـسـهـاـ أـوـ مـقاـوـمـةـ هـذـاـ الزـحـفـ عـلـىـ سـوـرـيـةـ، مـاـ يـعـنـيـ أـنـ هـذـهـ الـقـوـىـ تـعـمـلـ وـفـقـ اـسـتـرـاتـيـجـيـةـ مـنـسـقـةـ وـمـنـظـمـةـ، تـحـصـدـ نـتـائـجـهـاـ عـشـرـاتـ السـنـيـنـ الـمـقـبـلـةـ.

هـلـ يـحـلـ الـعـرـاقـ سـوـرـيـةـ؟ـ كـلـمـاـ طـالـ عـمـرـ نـظـامـ الـأـسـدـ، وـغـرـقـتـ الـدـوـلـ الـعـرـبـيـةـ بـالـخـلـافـاتـ الـجـانـبـيـةـ، وـاسـتـمـرـتـ أـمـيرـكـاـ بـمـمارـسـةـ الـضـجـيجـ الـفـارـغـ، بـتـنـاـ نـقـرـبـ مـنـ عـتـبـةـ مـثـلـ هـذـاـ الـاحـتـمـالـ، وـصـحـيـحـ أـنـ الـعـرـاقـ دـوـلـةـ غـيـرـ مـؤـهـلـةـ لـإـنـجـازـ هـذـهـ الـمـهـمـةـ، لـكـنـ لـدـيـهـ طـاقـاتـ هـائـلـةـ، تـبـحـثـ عـنـ مـشـغـلـ لـهـاـ، وـإـيـرانـ الـتـيـ مـارـسـتـ الـتـنـوـيـمـ الـمـغـنـاطـيـسـيـ عـلـىـ الـعـرـاقـ تـعـرـفـ بـحـرـفـيـةـ هـائـلـةـ أـزـرـارـ تـشـغـيلـ هـذـاـ الـكـيـانـ الـمـشـحـونـ بـطـاقـةـ كـبـيرـةـ، وـتـضـعـ لـهـ خـرـيـطـةـ مـسـارـ صـوبـ الـمـقـامـاتـ الـمـقـدـسـةـ.

العربي الجديد

المصادر: